شريف عبد القادر

جامعة الجزائر2-

العلاقات بين الدولة الزيانية والممالك الأوروبية من خلال شخصيات أجنبية.

(التمثيل السياسي،أشكاله ومظاهره1235م-1556م)

الملخص:

مما لاشك فيه أن العلاقات السياسية في العصر الوسيط تحكمت فيها جملة من العوامل الداخلية والخارجية ،مثل طبيعة النظام والظروف الأخرى كالتوتر ،والحروب والقرصنة، ضف إلى ذلك نوع الشخصيات التي كانت ممثلة لدولها أي كسفراء، الأمر الذي يجعل العلاقات، يطبعها التشنج وكثرة الشروط ،وهو ماميز العلاقة بين الدولة الزيانية مع جيرانها الأوروبيين في الصفة الشمالية للمتوسط.

الكلمات المفتاحية:

القرصنة، الدولة الزيانية، المسيحيين، العلوج، قطلونية، القائد

مدخل:

هناك قواعد وضوابط على أساسها يتم اختيار السفراء والرسل، التي تمثل دولها على مستوى الإمارات والمماليك الأوربية، وقد عمل سلاطين المغرب الإسلامي على إختيار سفرائهم، حيث قاموا بتعيين العلماء والفقهاء وكبار التجار، أما النصارى فاختاروا لهذه المهمة الرهبان والقساوسة، وكان لابد من أن تتوفر جملة من الشروط والإعتبارات ومن ذلك المظهر الخارجي والصورة الحسنة، وقد أحسن "أبو حمو الزياني" في وصفه حيث قال" أن يكون السفير مليح الهيئة والصورة، فيه محاسن مشهورة".[1]

كما لابد من أن تتوفر في السفير الأخلاق الكريمة القائمة على القيم والفضيلة، وأن يكون حافظا وكاتما للأسرار والأخبار، بالإضافة إلى الفصاحة والخطابة والغرض من ذلك التأثير في الآخرين بأسلوب فصيح فيه البيان وحجة الإقناع.[2]

إهتم سلاطين المغرب الإسلامي وبخاصة الزيانيين بالسفراء والسفارة، نتيجة تطور العلاقات السياسية والإقتصادية مع الدول والممالك النصرانية، مما دفع إلى محاولة وضع قواعد وقوانين لضبط هذا الجهاز، من حيث الإستقبال الذي كان يتم عادة في قصور السلاطين وغالبا إقامته لا تتعدى ثلاثة أيام يتم خلالها عرض أغراض السفارة.[3]

كان يشرف على الوساطة بين السفير غير العربي والسلطان مترجم، ويظهر أن هذا المنصب كان يتولاه نصراني حيث وردت عدة أسماء للنصارى في الرسائل والمعاهدات المبرمة بين الطرفين، وبرز دور هذا الأخير في الديوان وذلك من خلال إستقبال التجار النصارى في البلاط الزياني.[1]

والأمر الغالب أن قادة الفرقة المسيحية المرتزقة من الأراغونيين والقشتاليين هم الذين لعبوا دورا بارزا في التمثيل الدبلوماسي للدولة الزيانية فكان خطرهم بداخل البلاد أكثر من خطرهم الخارجي، ولا أدل على ذلك تلك الأدوار التي لعبها هؤلاء الجنود المرتزقة كمبعوثين وسفراء للزيانيين لدى ملوكهم في أوروبا.[2]

وقد تفاقم خطر النصارى على المسلمين بسبب تدخلهم السافر في الشؤون السياسية وكانت لهم يد كبيرة في حدوث العديد من القلاقل والفتن الداخلية، نتيجة مساهمتهم في مؤامرات على مستوى هرم السلطة، التي أثرت بشكل بارز على الحكم الزياني، ومن مظاهر تدخلاتهم في الحكم القيام بالعديد من الإغتيالات في صفوف بعض الشخصيات الزيانية المهمة، وكان ذلك بدافع من السلاطين أو الوزراء.

1.التمثيل القنصلي:

إن العلاقات الدبلوماسية بين الدول الإسلامية والدول الأجنبية المسيحية بدأت خلال القرن السادس الهجري(الثاني عشر الميلادي)،واستمرت في فترات السلم والحرب.كان تبادل السفراء يتم بطريقة استراتجية،تحركه أولويات سياسية منها معاهدات السلم،أو تسوية بعض المشاكل الصغيرة العالقة،منها القرصنة،ومسألة الأسرى،وقضايا تجارية أخرى مختلفة.والشئ الذي عمق هذه العلاقات السياسية وتطورها هو تحرك الأشخاص على مستوى البحر الابيض المتوسط.[1] والأمرالمهم في ذلك هو تعيين غير المسلمين من أجل اتمام العديد من المهام السياسية في الأراضي المسيحية.وتعدى ذلك إلى توظيف حتى اليهود في بعض المهام الدبلوماسية بالخارج.كما لم يستثن من هذه المهام قواد الفرق المسيحية والتجار.[2]

إن نظام القناصل أول ماظهرفي الجمهوريات الإيطالية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (السادس والسابع الهجريين).ومن مهامهم تمثيل مصالح البلدان الأجنبية في البلاد الإسلامية.فكانت المدن التجارية الأوروبية تعين قنصلا للاشراف على تجارتها بالمغرب الأوسط لفترة قصيرة لاتتعدى ثلاث سنوات.[3]

استكمالا لمهام القناصل يتم تعيين مساعدون لهم،كالقس والموثق، وترجمان، ووكيل، وعدد من العمال يكون لأحدهم دراية بالكتابة.ويوضع تحت تصرفه حصانيين.[4]

ومن الوظائف التي يقوم بها القنصل حل النزاعات بين المسيحيين وذلك بتطبيق قوانيين بلاده،ويمثلهم أمام القضاء.وفي حالة انعدام القنصل تحول القضية إلى الديوان للنظر فيها.[5] ويبدو أنه كان لكل دولة من الدول الأوروبية المتوسطية الكبرى أكثر من قنصل في الدولة الزيانية، ولا سيما في الثغور والمدن البحرية مثل وهران وهنين وغيرهما. وإذا كان القنصل العام يوجد في مدينة ما، فإن نوابه كانوا يمثلونه في مدن أخرى ويشرفون على فنادق لهم ويسهرون على مراقبة المسائل التجارية لصالح رعاياهم من التجار. [6]وتمثلت مهمتهم كذلك في العمل على توفير الراحة لجاليتهم والعدل بينهم. وكان يسمح للقنصل بمقابلة السلطان أو الأمير مرة واحدة في كل شهر بموجب الاتفاقيات، وبإمكانه أيضا مقابلة حاكم المدينة أو الإقليم الذي يعيش فيه[7]. وبالمقابل فلا وجود لقناصل يمثلون الدولة الزيانية في المدن والموانئ المسيحية. وكان الوجود الزياني في الموانئ الأوروبية عبارة عن مبادرات فردية قام بها بعض التجار المسلمين، لأن الدولة الزيانية كغيرها من الدول الإسلامية، لا تشجع التجار المسلمين إلى الذهاب إلى دار الكفر[8]. وكان الوازع الروحي في الغالب يقف أمام المسلمين ويمنعهم من الذهاب إلى النصارى، على الرغم من أنه كان لبعض التلمسانيين أسهم في الأسطول التجاري الذي جاب سواحل البحر المتوسط الشمالية والجنوبية، ففي سنة 732هـ/1331م كان الوزير التلمساني هلال القطلاني، يملك ثلاثة أرباع لسفينة ميورقية.[9]

لقد استعمل العديد من الجنود المرتزقة كسفراءومبعوثين،كان يتم اختيارهم من العائلات الحاكمة،من أمثال هجين جاك الاراغوني (خايمي الثاني)المسمى(le batard) الذي كان يعمل في بلاط السلاطين الزيانيين في تلمسان عند أبي تاشفين[10].

إن هلال القطلاني المذكور الذي كان مقربا إلى السلطان على رغم من أصوله فقد تولى منصبا راقيا في البلاط الحكومي،وذلك حوالي عام 1318م،وكانت أول مهمة كلف بهاعام1325م نحوفالنسيا ،وقد حمل فيها مقترحات السلم من قبل أبيه.[11]وظهردوره الدبلوماسي في العديد من المراسلات بين سلاطين تلمسان وملوك أراغون ،ومن ذلك الرسالة التي بعثت إلى جاك الثاني ملك الأراغون بتاريخ صفر سنة 723هـ الموافق 9فيفري1323م بخصوص اطلاق سراح النصارى التابعين للتاجر خوان مانويل مع تحديد بعض الضمانات المقترحة.[12] وهي

عبارة عن رد على رسالة جاك الثاني.[13] ويظهر من جديد مع سفير آخر هو أبا يعقوب ابن الحوراءفي الرسالة المؤرخة في 17رجب727ه الموافق 1327م .[14]

هذا الذي أكد الدور الهام الذي كان يقوم به هلال كمفوض في مهمات كثيرة بتلمسان وميورقة،حيث ساهم في رسم معالم السياسة بين الطرفين وقد أظهرفي احدى الرسائل مدى ارتباطه بالبلاط الأراغوني والتزامه بخدمته،وأنه مستعد لتطبيق جميع مايريده .[15]لقد حاول ملوك أراغون أن يكون القائد أي قائد المليشيات العسكرية المسيحية المرتزقة في تلمسان هو المسؤول المباشرعلى جميع الجاليات والاشراف حتى على المدنيين على اختلاف جنسياتهم.وتعد المعاهدة التلمسانية الأراغونية المنعقدة عام 1286م[16] والتي بموجبها كان الملك يعين القائد كوسيط بينه وبين المسيحيين،وبذلك انتزع الأراغونيين اشرافا سياسيا على جميع الرعايا الأجانب الآخرين مثل الإيطاليين والبروفنسيين.فقد نص البند الثالث من هذه المعاهدة على ضرورة خضوع جميع الرعايا للقائد الأراغوني وأنه الممثل الشرعي يقوم بحل مشاكل هؤلاء ،بالإضافة إلى الفصل في القضايا القضائية ،وأن تحركاتهم داخليا وخارجيا تخضع لمراقبته.حيث كان يتدخل حتى في شؤون السلاطين التلمسانيين وهو مايؤكد أن ملوك أراغون كانوا يوجهون أعمال القائد لخدمتهم وتحقيق مصالحهم.[17]

2.النشاط السياسي للتجاروالعلوج:

عمل التجار المسيحيين اللاتنيين دورا دبلوماسيا هاما في ربط العلاقات بين الطرفين،وكان حضورهم واضحا في بعض القضايا الدبلوماسية سواء في المغرب أوتلمسان،وهو مايطرح عدة تساؤلات لها علاقة بمسألة فدية الأسرى،والفرق المسيحية المرتزقة.هذا الدور الذي كان يقوم به التجار يفسر لنا سهولة التنقل من أوروبا إلى المغرب الإسلامي،حسب طبيعة القضايا السياسية المطروحة والمرتبطة بخصوصيات كل دولة أو عدة دول مسيحية.[18]وكان يتولى هذه المناصب الحساسة والصعبة شخصيات لها جميع المعلومات حول القضايا الخاصة بالتجارة والسياسة ، ومن ذلك شخصية فرانشيسك مارش الذي كان قنصلا له دراية بالشؤون السياسية وحتى القضايا التجارية وحتى بالمشاكل التي تطرحها العلاقات بين

الطرفين.[19]والشئ الآخر الذي يجب الإشارة إليه هو تعيين اليهود لهذه المهام بحيث استخدموا كوسطاء في العديد من القضايا من طرف الملوك المسيحين والأمراء المسلمين،ولا يهم إن بعث سلطان يهودي كسفير بالإضافة إلى استخدامه كمترجم أو أن يبعث معه مترجم مسلم.ومن اليهود الذين استخدموا كسفراءصاوئيل بن جلال وبن دافي حيث أرسلهما كل من ملك اسبانيا ألفونسو الثالث وملك الأراغون جاك الثاني إلى بلد المغرب الأوسط ،كما استخدموا كجواسيس.[20]

استخدم بنو زيان الأعلاج أو الصقالبة في بلاطهم، كغيرهم من الدول الإسلامية المتعاقبة في بلاد المشرق والمغرب والأندلس، وهم عناصر من جنسيات أوروبية مختلفة يجلبون من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وكتلونية وجليقية، في شمال إسبانيا، بواسطة الشراء أو الغارات والغزوات للشواطئ الأوروبية وجزر البحر المتوسط أو عن طريق الهدايا .[21] نشأ الأعلاج في دار الإسلام تنشئة إسلامية، ودربوا على أعمال القصر لخدمة الحريم، وتكونت منهم فرق خاصة في الجيش وحرس السلطان ، وتقلدوا القيادة وخطط الوزارة والحجابة.[22] وقد اشتهر منهم في البلاط الزياني هلال القطلاني الذي سباه المسلمون، من نصارى كتلونية، وجلبوه إلى غرناطة حيث أهداه السلطان الغرناطي محمد الثاني الأحمر (671-701هـ/1273-1302م)، إلى السلطان الزياني عثمان بن يغمراسن (681-703هـ/1283-1303م)، ثم صار هلال القطلاني بعد ذلك إلى أبي حمو موسى (707-718هـ/1307-1318م)، الذي دفع به إلى ابنه أبي تاشفين، ومعه بعض الاعلاج يقومون بخدمته وتربيته ، وكان هلال من الصقالبة الاعلاج واقربهم إلى أبي تاشفين، حتى أصبح من خلصائه، وثقاته فقلده الحجابة والوزارة، عندما تولى العرش الزياني وأطلق يده في خطط الدولة، حتى صار بيده الحل والعقد فكان محببا صارما عنيدا اتخذ كتابا وضياعا ، وصار له مال كثير وسفينة لنقل التجارة ، وقام بزحزحة منافسيه، وتصدى لمعارضيه في البلاط الزياني ،[23] وبرزت معه مجموعة من الاعلاج كان لها مركزها السياسي والاجتماعي في المجتمع التلمساني، بحيث شكلوا فريقا مهما، من القادة والضباط في الجيش الزياني مثل: القائد مسامح[24]،الذي عقد له أبي حمموسى الأول على عسكره ،وتمكن بفضله من القضاء على ثورة ابن علان في الجزائر.[25] وفرج بن عبد الله، وظافر محمدي وعلي بن

تاكارت ، وفرح الملقب بشقورة، وغيرهم من الأعلاج الذين صاروا عنصرا من عناصر المجتمع التلمساني، في العهد الزياني.[26]

كما اعتمد الأمراء المتأخرين من بني زيان على إرسال مبعوثين مسيحين لتمثيلهم دبلوماسيا،فمثلا موسى الثاني بن يوسف يبعث علي الكانية وعرف أيضا بالكانة إلى أراغون سنة 759هـ-760هـ/1358م-1359م.واستعان أبي حمو المعروف بأبي قلمون بعد أن خلع من السلطة بالإمبراطور شارل الخامس لمساعدته على أهل تلمسان.

يظهر أن سلاطين بني زيان إستعانوا بالعديد من السفراء من جنسيات أجنبية مختلفة لتمثيلهم على المستوى الخارجي ،وبرز ذلك جليا في العديد من المراسلات التي كانت ترسل إليهم من الممالك الأوربية .هذا الأمر الذي يعكس المكانة التي تمتع بها هؤلاء في البلاط الزياني،كما يبين دورهم في رسم معالم العلاقات السياسية الخارجية.

الهوامش:

[1] – أبو حمو الزياني: **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تح وتع، محمود بترعة: دار النعمان للطباعة والنشر، دار الشيماء، الجزائر، 2012م، ص 243.

[2] – نفسه ، ص 243.

[3] – عبد الهادي التازي: **في تاريخ المغرب، جامع القرويين**، دار المعرفة للنشر والتوزيع،ط.2، الرباط، المغرب،2000، مج2، ص 447.

[1] – Michel Amari: **I Diplomi Arabi del R .Archivio Fiorentino**,florence,1863, Op. Cit.P. 61 ؛ صالح بعيزيق: **بجاية في العهد الحفصي، دراسة إقتصادية وإجتماعية**، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006م، ص 227.

[2] - إبراهيم حركات: **المغرب عبر التاريخ**،دارالرشاد الحديثة،الدار البيضاء،2000، ج .2، ص 83.

[1]-Dominique Valerian : les agents de la diplomatie des souverains maghrébins avec le monde chrétien(12e-15e siécle),Anuario de estudios médiévales(AEM) 38/2,2008,op.cit,pp.885-886

[2]-Dufourcq: L'espagne catalane et le maghreb aux 13e siécles,paris,1966, op.cit,p1392

[3]-DeMas Latrie : traitesdepaixetdecommerce documentsdiversconcernantlesrelationsdeschretiensavecles arebesdel'afrique au moyen age .paris1868imprimeur-editeur:pp86-88.

[4]-لطيفة بشاري:**العلاقات التجارية للمغرب الاوسط في عهد إمارة بني عبد الواد من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين(13م/16م)**،وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ،تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية،2011،ص184.

[5]-Robert Brunschvig **La Berbérie orientale sous les hafsides des origines a la fin du.14e siècle**,publications de l'institut d'etudes ; orientales:,tome .1,p437.

[6] - زينب أحمد كرير: ، أهل الذمة في العهد الحفصي ،أطروحة دكتوراة غير منشورة ،جامعة الزقازيق ،كلية الآداب قسم التاريخ ،2005.
ص150.

[7] سلفاتوري بونو: وضع الجاليات الأوربية في المغرب ،مجلة الأصالة،ع1975،19،وزارة الشؤون الدينية والأوقاف،الجزائر ،ص144.

[8],896-895 Dominique Valérian : Les agents,Op.Cit,p

[9] صالح بن قربة وآخرون: **الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر**،المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،الجزائر،2007،ص 481.

[10] -..A.Dhina : **Les etats del'occident musulman aux 13et14et15siécles**,office des publications universitaires,alger,1984 Op.cit p420.

[11] -Valirean :les agent,Op cit ,p890.

[12]- جيلالي صاري : **تلمسان الزيانية إرهاصات ظهور الدولة الجزائرية في العصر الحديث**،تر.مسعود حاج مسعود،دار القصبة للنشر،2011، ص 54.

[13] - مضمون الاتفاق حسب سعيدان يقضي بعقد صلح قبل اطلاق سراح 14أسيرا تابعين للتاجر -عمر خوان القطلاني،مقابل ذلك يتعهد السلطان بتحرير 30نصرانيا يختارهم السلطان بنفسه. ، **علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن 14م**،منشورات :سعيدان ،2011ص51-252ثالة،الأبيار،ط.

[14] -Dominique valerian:Op.Cit,p890 Dufourcq :Op.Cit,p472-473.

[15]-عمر سعيدان:المرجع السابق،ص63.

[16]- عمر سعيدان:المرجع السابق،ص63 .

[17]- Attalah dhina:Op.Cit,p448. يرى أن القائد كان يلعب دور في المفاوضات مع القوى الإيبيرية واقتصر ذلك على القضايا العسكرية أو مسألة توظيف الجنود المرتزقة من طرف السلاطين.

[1]-Dominique Valerian:Op.cit,891

[19]- Ibid:p891-892. يرى أن خلال القرن الثالث عشر كان يبلغ حوالي 17 سفيرا أو قنصلا أوروبيا في افريقيا

[20]-Dhina :Op.cit,p419.

[21] -Andrés Diaz Borras **los origenes de la pirateria islamica en valencia**,la ofensiva musulmana,impreso en espana ,sant adria de besos,Barcelona,1993 , Op.Cit.p.11

[22] - Robert Brunchvig :Op.Cit,t.1,p.440.

Dufourcq :L'espan catalan,p474-475−3

[24] - مسامح: هو من موالي بنو زيان ويعرف بالعلج ،عينه أبو حمو موسى الأول على ولاية مغراوة،وقيادة النواحي الشرقية من أملاك الدولة الزيانية ،كما كلف بمحاربة الحفصين.ينظر: مختارحساني :رسالة دكتوراه الحلقة **الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية في الدولة الزيانية**، الثالثة،جامعة الجزائر،1985-1986،ص141.

[25] المرجع السابق ،ص141،هامش5.: - حساني مختار

[26] - **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق وتقديم، عبد الحميد :يحي ابن خلدون : حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة 2011ج.1،ص214.